

الباب الأول قلائد الجمان في فضائل القرآن

الفصل الأول خصائص القرآن وأوصافه

أولاً - تعريف القرآن؛

القرآن العظيم هو كلام رب العالمين وهو أشهر وأظهر من أن يُعرَّف إذ هو كلام رب العالمين الله خالق الخلق ومالك الملك ورب كل شيء جل جلاله ومع ذلك فقد حرص أهل العلم على تعريفه تعريفاً جامعاً مانعاً فقالوا:

القرآن: هو كلام الله المنزل على رسوله محمد ﷺ، المعجز بنفسه، المتعبد بتلاوته، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا نقلاً متواتراً بلا شبهة، المبدوء بسورة الفاتحة المختوم بسورة الناس، المتحدي بأقصر سورة منه ^(١).

قال الشيخ حافظ حكمي رَحِمَهُ اللهُ:

أما الكتابُ فهو القرآنُ	بين الضلالِ والهدى فرقانُ
المُعْجِزُ الْمُفْجِهُمُ لِلْأَضْدَادِ	بُرْهَانٌ حَقٌّ أَبَدُ الْأَبَادِ
كلامٌ ربيٌّ منزلٌ تنزيلاً	لا يقبل الخلف ولا التبديلاً
به الإله خلقه تَعَبُّدًا	بين تلاوة تدبراً ثم اهتدى فرقانُ ^(٢)

(١) مذكرة الشنقيطي (ص: ٥٥)، المدخل لابن بدران [٨٧]، «الوجيز» للدكتور عبد الكريم زيدان (ص: ١٥٢)، و«معالم أصول الفقه» للجزيري (ص: ١٠٢).

(٢) في منظومة له بعنوان: «وسيلة الحصول إلى مهمات الأصول».

ثانيًا - أسماء القرآن:

سمي ربنا -عزَّ وجلَّ- كتابه عدة أسماء وقد أوصل بعض العلماء كالفيروز آبادي أسماء القرآن إلى مائة اسم^(١).

١- وذكر العلماء للقرآن أسماء كثيرة.

ومن أشهر أسماء القرآن التي وردت في القرآن الكريم ما يلي:

١- القرآن:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]

٢- الكتاب:

قَالَ تَعَالَى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ
فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿[الزمر: ١-٢].

٣- الفرقان:

قال ربنا جل جلاله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

[الفرقان: ١]

٤- الذكر:

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].
وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَكَاذِبُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَرْفَعُنَّكَ بِأَبْصَرِهِ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَنْجُونٌ﴾

[القصص: ٥١]

(١) «بصائر ذوي التمييز» (١/ ٦٣)، و«البرهان» للزركشي (١/ ٣٤٣-٣٤٦) وقد ذكر كثيرًا من هذه الأسماء شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٣٣) ط: العكيان فارجد إليها إن شئت.

قَالَ تَجَالَى: ﴿وَلَهُ نَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٥-٢].

وَقَالَ تَجَالَى: ﴿وَأَقْرَأَ الْحَكِيمِ﴾ ② إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ③ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ④
نَزِيلُ الْغَرِيزِ الرَّحِيمِ ﴿[يونس: ٥-٢].

٦- أحسن الحديث:

قَالَ تَجَالَى: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣].

٧- النبأ العظيم:

قَالَ تَجَالَى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ① عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ﴿[النبا: ١-٢].

قال بعض أهل العلم: إن المراد بالنبأ العظيم القرآن وذلك لقول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ ⑦ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿[ص: ٦٧-٦٨] ①).

ثالثاً- خصائص القرآن:

١- القرآن كلام الله تعالى حقيقة وهو اللفظ والمعنى جميعاً قَالَ تَجَالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: والقرآن هو القرآن الذي يعلم المسلمون أنه القرآن حروفه ومعانيه، والأمر والنهي هو اللفظ والمعنى جميعاً ②).

٢- القرآن معجز في لفظه ونظمه ومعناه فالخلق كلهم لو اجتمعوا عاجزون عن الإتيان بمثل سورة واحدة من القرآن وسوف نتحدث عن الإعجاز بشيء التفصيل فيما يلي بإذن ربنا سبحانه وتعالى.

(١) «التسهيل لتأويل التنزيل» جزء عم (١/ ١٣).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٢/ ٣٦).

٣- محفوظ من الزيادة والنقصان: لن يستطيع مخلوق أبداً أن يزيد القرآن أو ينقص منه حرفاً لأن الله تعالى تولى حفظه، وما تولى الله حفظه فلن تصل إليه أيدي العابثين المفسدين قال رب العالمين وأحكم الحاكمين في كتابه الحكيم المبين: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] وها هو القرآن قد مضى على نزوله على رسول الله ﷺ أربعة عشر قرناً من الزمان ولا زال القرآن هو القرآن ما زيد فيه حرف وما نقص منه حرف.

فالقرآن الذي تعبد به الرسول والصحابة لربهم هو ذاته القرآن الذي نتعبد به اليوم وبعد اليوم وإلى قيام الساعة نتعبد به لله جل جلاله، ولم ولن ينقص منه أو يزداد فيه، لم ولن نجد فيه تحريفاً أو تبديلاً أو تغييراً لأنه كلام الله وحكمه وأمره وهو الذي تولى بنفسه حفظه.

٤- القرآن مهيمن على الكتب السابقة ومصدق لها.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

يقول السعدي رحمه الله: يقول تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ الذي هو القرآن العظيم أفضل الكتب وأجلها بالحق أي إنزالاً ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ ومشتماً على الحق في أخباره وأوامره ونواهيه ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ لأنه شهد لها ووافقها، وطابقت أخباره أخبارها، وشرائعه الكبار شرائعها وأخبرت به، فصار وجوده مصداقاً لخبرها ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ أي: مشتماً على ما اشتملت عليه الكتب السابقة وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية، فهو الكتاب الذي تتبع كل حق، جاءت به الكتب السابقة فأمر به وحث عليه وأكثر من الطرق الموصلة إليه، وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين، وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة والأحكام الذي عرضت عليه الكتب السابقة.

فما شهد له بالصدق فهو المقبول، وما شهد له بالرد فهو مردود قد دخله التحريف والتبديل وإلا لو كان من عند الله لم يخالفه^(١).

قلت: رسولنا محمد ﷺ ليس بعده رسول والقرآن ليس بعده كتاب فكما أن محمدًا ﷺ خاتم الأنبياء فكذلك القرآن هو خاتم الكتب السماوية لذا فقد حوى هذا القرآن أسباب السعادة الخالدة لكل الخلق في كل عصر وآن، فهو رسالة الله الخالدة، ومعجزة الإسلام الباقية، فالحق كل الحق ما جاء به والباطل كل الباطل ما نهى عنه لأنه كلام الله الملك الحق جل جلاله.

٥- من خصائص القرآن أنه عربي:

قال الله جل وعلا: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢].

وقال جل ذكره وعز اسمه سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].
﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ لَتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [بلسان عربي مبين] [الشعراء: ١٩٢-١٩٥].

فليس في القرآن الكريم لفظ غير عربي، قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «جميع كتاب الله نزل بلسان العرب» وقال: «ليس من كتاب الله شيء إلا بلسان العرب»^(٢).

ولا يشكل على كون القرآن عربيًا وجود بعض الكلمات الأعجمية فيه مثل: المشكاة، والاستبرق إذ يمكن حمل هذه الألفاظ التي يُقال إنها أعجمية على واحدٍ من الوجوه الآتية:

أولاً- هذه الألفاظ إنما هي عربية لكن قد يجهل بعض الناس كون هذه الألفاظ عربية وذلك أن لسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا وأكثرها ألفاظًا، ولا يحيط بجميع علمه

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص: ٢٤٦) ط: دار ابن الجوزي.

(٢) «الرسالة» (٤٠-٤٢).

إنسان غير نبي، ولا يمتنع أن يوافق لسان العجم أو بعضها قليلاً من اللسان العربي كما يتفق القليل من ألسنة العجم المتباينة في أكثر كلامها مع تنائي ديارها واختلاف لسانها.

ثانياً- أن هذه الألفاظ التي يقال إنها أعجمية لا يمتنع أن تكون عربية وأن يكون لها معنى آخر في لغة أخرى فمن نسبها إلى العربية فهو محق، ومن نسبها إلى غيرها فهو محق.

ثالثاً- أن هذه الألفاظ أصلها غير عربي ثم عربتها العرب واستعملتها فصارت من لسانها (١).

فالمقصود أن القرآن كله عربي خالص اللغة العربية أفصح اللغات وأكملها وأوسعها وأدقها.

٦- من خصائص القرآن أنه متواتر لفظاً ومعنى: فقد نقله قوم لا يتوهم اجتماعهم على الكذب لكثرة عددهم وتباين أمكنتهم عن قوم مثلهم وهكذا إلى أن يتصل النقل برسول الله ﷺ، قال الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه النبأ العظيم: روعي في تسمية القرآن قرآنًا كونه متلوًا باللسان، كما روعي في تسميته كتابًا كونه مدونًا بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعنى أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعًا أن تضل إحداها فتذكر إحداها الأخرى، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجتمع عليه من الأصحاب عليه السلام المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر.

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها بقي القرآن محفوظاً في حرز حريز إنجازاً لوعده الله الذي تكفل بحفظه ^(١).

إن القرآن قد نقل إلينا بحفظ الكثرة الكثيرة من ألوف الرواة في كل جيل من هذه الأمة المباركة الولود المعطاء، ففي كل طبقة من الأجيال السالفة أخذه كل تلميذ عن شيخه وحفظه لمن بعده وكل حاصل على إجازة وإسناد فهو متصل السند إلى رسول الله ﷺ وهم اليوم مألوف وهم في السابق اللاحق كذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: والقرآن الذي بين لוחي المصحف متواتر فإن هذه المصاحف المكتوبة اتفق عليها الصحابة ونقلوها قرآنًا عن النبي ﷺ وهي متواترة من عهد الصحابة نعلم علمًا ضروريًا أنها ما غُيِّرَتْ ^(٢).

٧- القرآن كتابٌ عالمي: ليس القرآن كتابًا خاصًا بطائفة دون أخرى ولا بجنس من الخلق دون آخر، بل القرآن كتاب من الله إلى كل العالم العربي والعجمي وكل الإنس وكل الجن وهذه من خصائص القرآن وخصائص الرسول محمد ﷺ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾

[الْفُرْقَان: ١]

وقال الله جل جلاله: ﴿ قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الْأَنْعَام: ١٩]. فليس القرآن للعرب وحدهم، بل هو لكل عاقل ناطق مكلف من الإنس والجن كما أن محمدًا ﷺ ليس نبيًا للعرب فقط بل هو آخر الرسل وخاتم الأنبياء وقد أرسل إلى الخلق كافة كما قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الْأَنْبِيَاء: ١٠٧].

(١) «النبا العظيم» (١٢-١٣) ط: دار القلم.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٦ / ٦٨٥) ط: العبيكان.

وقال جل ذكره: ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الإعراف: ١٥٨].

والآيات في عالمية القرآن كثيرة، وتلك من خصائص القرآن التي لم تكن لكتاب قبله ولا تكون إلا له إذ ليس بعده كتاب، فهو الكتاب الإلهي الرباني الوحيد الموجه إلى الخلق كافة، ومن هنا يجب على المؤمنين العالمين بلغات العالم ترجمة معاني هذا القرآن العظيم إلى لغات البشر المختلفة إقامة لحجة الله على خلقه. وقيامًا بوظيفة البلاغ التي أناطها الله جل جلاله بهذه الأمة المباركة والذين هم أرحم الناس بالناس وأحرص الناس على الناس.

٨- القرآن هو رسالة الإصلاح الربانية: التحليل والتحرير تشريع إلهي لا مجال للعقل فيه، وصلاح الفرد والأمة مرهون باتباع أمر الله والإذعان له، والقرآن قد اعتبر الإنسان محور هذا الكون وأن كل ما فيه مسخر لخدمته وعلى الإنسان أن يحسن النظر في ملكوت الله وأن يفكر في بديع صنع الله في الكون وفي الإنسان من غير حدود، كما دعا القرآن هذا الإنسان إلى الاستقراء والملاحظة والتجريب، وأما الأمور الغيبية فلا مجال للعقل فيها.

لذلك فليعلم أنه لا راحة للبشرية ولا طمأنينة لهذا الإنسان ولا تناسق مع سنن الكون وفطرة الحياة ولا شفاء للأدواء التي تعاني منها الإنسانية إلا بالرجوع إلى الله تعالى، والرجوع إلى الله يعني العودة بالحياة كلها إلى منهج الله الذي أوضحه في كتابه.

٩- القرآن هو أعظم الكلام أثرًا في النفوس والقلوب:

للقرآن أثره العظيم في القلوب وله سلطانه القوي على النفوس ولذلك كان المشركون يمنعون أبناءهم ونساءهم من سماعه خوفًا منهم أن يستول القرآن على وجدانهم ومشاعرهم وليس أدل على هذا الأثر من إسلام عمر وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير بعد سماعهم للقرآن فلم يستطيعوا مقاومة هذا الأثر في قلوبهم.

١٠- القرآن أساس النهضة وسر الحياة:

بالقرآن استطاع المسلمون أن يحكموا العالم، وقدموا للإنسانية نموذجاً فريداً من الحكم العادل والسياسة الرشيدة وهذا النموذج لم تعرف البشرية من نظيراً قبل ولم يخطر لها على بال قط.

وبالقرآن استطاع المسلمون أن يصمدوا أمام الغزوات والضربات الموجعة التي وجهت إليهم على مرّ العصور والأزمان، وما كان ذلك إلا برجعهم إلى القرآن وتمسكهم به، ولذا كان سبب التخلف الذي لحق بالمسلمين هو التخلي عن القرآن الكريم وتنحيته عن المجالات المختلفة في الحياة، وإن إصلاح الحاضر الذي ارتكست فيه الإنسانية اليوم لن يتم إلا بالإيمان بالله وتحكيم كتابه.

رابعاً - أوصاف القرآن:

لقد وصف ربنا العليم الحكيم كتابه الكريم، بكل وصف نبيل عظيم، جليل جميل يدل على عظمة وجلال وقدرة وحكمة من تكلم به سبحانه وبحمده.

وهل عرفت الدنيا كتاباً أقوم وأبقى من القرآن؟!

وهل وعى التاريخ كلاماً أحسن وأبلغ وأهدى من القرآن؟!

وهل اهتدت القلوب والعقول واستفاقت بمثل القرآن؟ إن أعظم ما نطق به لسان كلام الرحيم الرحمن جلّ جلاله.

وإن أمتع وأروع ما سمعته الأذان هو القرآن، وهو أنجع دواء، وأنفع شفاء، وأروع بيان، وأنصح برهان، فيه الحق والحكمة، فيه الخير والرحمة.

فيه النور والهداية، والصدق والعدل، والبلاغة والبيان، والثبات على الإيمان، والطمأنينة والسكينة، والحياة الحقيقية والسعادة الأبدية لأنه كلام ربي وكفى!

وهذه بعض أوصاف كلام ربنا من كلام ربنا لعل القلوب تمتلئ بعظمة القرآن
وحب القرآن وتوقيره ففسارح لتكون من أهله وتديم تلاوته وتدبره وتستقيم على هديه
وحكمه.

وصف الله القرآن بأنه مجيد أي كريم عظيم فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْوَعْدُ إِنَّ الْمَجِيدَ﴾

[قب: ۱]

وبأنه حكيم فقال تعالى: ﴿يَس ۝١﴾ وَأَنْقَرَاهُ إِنَّ الْحَكِيمَ ﴿يَس ۝١﴾ [يَس: ١-٢] ووصفه بأنه مبارك والبركة ثبات الخير في الشيء ودوامه فقال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

ووصفه بأنه عزيز أي منيع الجنب لا يستطيع أن يأتي أحدٌ بمثله لأنه منزل من رب العالمين **قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتُ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾** [فَصَّلَتْ: ٤١-٤٢].

وكذا وصفه الله تعالى بأنه نذير وبشير فقال ربنا الحكيم الخبير: ﴿ كَتَبْتُ فَصَّلَتْ
ءَايَاتُهُ، فَرَأَى أَنَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٢﴾ بِشِيرًا وَنَذِيرًا ﴿﴾ [فَصَّلَتْ: ٣-٤].

ووصفه ربنا - عَزَّ وَجَلَّ - بأنه قِيم لا عوج فيه ولا انحراف ولا ضلالة فقال تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ ﴿١﴾ قِيمًا لِّمَنذِرٍ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ١-٢].

ونفى الله عن كتابه وكلامه الريب، فلا شك فيه ولا ارتياب ونفى الريب يستلزم ضد ذلك وهو اليقين فهذا الكتاب هو القرآن لا شك فيه أنه نزل من عند الله **قَالَ تَجِدُ** ﴿١﴾ **ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** ﴿البقرة: ١-٢﴾.

وقال جل ذكره: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿السَّجْدَة: ١-٢﴾ ووصف الله القرآن بأنه برهانٌ ونورٌ أي دليل قاطع للغدر وحجة مزيلة

للشبهات، وضياء واضح على الحق قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفْرَهُنَّ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤].

وتأمل كيف أن ربنا جل وعلا قد قال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ ولم يقل ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فالقرآن حجة على الخلق كافة، ورسالة من الله إلى الناس كلهم كما قَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وقوله تعالى: ﴿لَا نَذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

فكل من بلغه القرآن صار حجة من الله عليه.

ولهذا وصف الله كتابه أيضًا بأنه بيان للناس وموعظة بليغة للمتقين من عباد الله قَالَ تَعَالَى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [ال عمران: ١٣٨].

ويبين الله تعالى أن من أوصاف القرآن أنه تبيان لكل شيء فقال رب كل شيء سبحانه وتعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

[الحج: ٨٩]

وقال ربنا ورب كل شيء: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

كذلك من أوصاف القرآن أنه نور قال الحكيم الغفور في كتابه المسطور: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

[الأنعام: ١٥٧]

ومن العجيب أن نفس الرقم لهذه الآية في سورة الأنعام تجد فيه وصفًا للقرآن بأنه بينة من الله وهدى ورحمة فقال تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٧]، وتأمل رقم هذه الآية والسابقة.

وفي نفس السورة وقبل هذه الآيات آيات يقول رب الأرض والسموات واصفًا كتابه المجيد بأنه مفصل ومنزل من عنده وبأن أهل الكتاب من اليهود والنصارى في ذلك الزمان يعلمون أن القرآن منزل من عند الله.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَعَيِّرَ اللَّهُ آيَاتِي حُكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٤-١١٥].

والقرآن موصوف بأنه عجب أي من العجائب الغالية والمطالب العالية والقرآن يهدي إلى الرشد والرشد اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم وهذا الوصف وصف الجن كلام الله جل جلاله حينما سمعوه من النبي محمد ﷺ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ [الجن: ١-٢].

وهذا يشبه قول الله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَعَى اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرَكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

[الأحقاف: ٢٩-٣١]

ومن أوصاف القرآن أنه قول ثقيل أي إن معانيه عظيمة وأوصافه جليلة، وما كان بهذا الوصف المهيب حقيق بأن يُتهَيَّأَ له ويُرتَّل ويُتفكر فيما يشتمل عليه.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [الزمر: ٥].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً» قال الحسن وقتادة: أي العمل به، وقيل: ثقیل وقت نزوله من عظمته كما قال زيد بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي فثقلت علي حتى خفتُ أن ترصّ فخذي»^(١).

ثم قال: واختار ابن جرير أنه ثقیل من الوجهين معاً كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كما ثقل في الدنيا ثقل يوم القيامة في الموازين^(٢).

ومن أوصاف القرآن أنه بصائر من الله جل جلاله لعباده فهو أعظم المعجزات وأبين الدلالات، وأصدق الحجج والبيّنات، يستبصر به المؤمنون في جميع مطالبهم ويستضيئون بنوره في حياتهم قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُم بِمَا يُؤْتِيكُمُ اللَّهُ مِن رِّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّهُ بَصِيرٌ فِي مَا تَكُونُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

ووصف الله القرآن بأنه كريم ووصفه بأنه مبین وعظيم فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَكَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧].

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، وقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٦٩].

وبين ربنا جل وعلا أن القرآن ذو شرف عظيم ومكانة لا تطل ولا منزلة رفيعة عالية سامية لا تدرك. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾ [الأنعام: ٤].

قال الحافظ ابن كثير عليه رحمة الله: بين شرفة في الملاء الأعلى ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض فقال تعالى: ﴿وَلَئِنَّهُ﴾ أي القرآن ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ أي اللوح المحفوظ

(١) رواه البخاري برقم [٤٥٩٢].

(٢) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٨/ ١٩٧-١٩٨) ط: التوفيقية.

قاله ابن عباس رحمته الله ومجاهد ﴿لَدَيْنَا﴾ أي عندنا قاله قتادة وغيره ﴿لَعَلِّي﴾ أي ذو مكانة وشرف وفضل قاله قتادة أي محكم بريء من اللبس والزيغ وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله ^(١).

والقرآن موصوف بأنه هدى ورحمة للمؤمنين قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصِّلُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ^(٧٦) وَإِنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿[النَّبَأ: ٧٦-٧٧].

فالمؤمنون المصدقون بالقرآن والذين تلقوه بالقبول وتدبروه تحصل لهم به الهداية من الضلالة والغي والته وتطمئن به صدورهم وتستقيم به أمورهم وتسعد به حياتهم. والقرآن هو الحق.. وهل هناك كلام أحق بأن يوصف بالحق من كلام الحق جل جلاله؟! قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفْرًا وَلَهُمْ فِيهَا مَعْذِرَةٌ مِّنْ أَهْتَدَىٰ فَلَمَّا بَهِتَىٰ لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَلَمَّا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يُونُس: ١٠٨].

قَالَ النَّبِيُّ: ﴿أَمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُ أُولَئِ الَّذِينَ لَا يَلْبَسُ﴾ [الرَّحْمَةُ: ١٩]، هذا القرآن هو الحق الذي ما انطمس ولا اندرس وما بدل فيه حرف عن حرف ولا كلمة منذ أن بزغ نوره وأشرق ضياؤه حيث أقبلت إليه نفوس زكية تزداد بهدايته زكاة واستقامة وهدى ونورا. هذا هو الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال؟!

هذه بعض أوصاف القرآن وهي من كلام ربنا سبحانه أعظم وأصدق من تكلم، وأجل وأعلى من أفهم وفهم، وهدى وعلم.

فسبحان من يسر كلامه للأفهام، وأقامه حجة على الخلق مدى الزمان والأيام!